

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد السادس عشر يوليو ١٩٩٦

(3)



جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد السادس عشر

يناير ١٩٩٦

١ – الأبحاث والدراسات :

- التجارة المصرية مع نجد خلال الربع الأخير من القرن ١٨ فى ضوء الوثائق المحلية.

  د. عبد العليم على أبو هيكل

- المرأة الأندلسية فى عصر أمويي الأندلس .

  د. محمد بركات البيلى

- موقف بريطانيا من فتح قنصلية أمريكية فى الكويت (١٩٤٦ – ١٩٥١) .

  د. عبدالله سراج منسى

- الأبعاد التاريخية لرحلة هاملتون فى الجزيرة العربية عام ١٩١٧ .

  د. عبدالوهاب بن صالح بابعير

- سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠–٩٠٠هـ/١٢٠٠–١٥٠٠م)

  د. غيثان بن على بن جريس

- الخلافات المذهبية فى أفريقية الأغلبية .

  د. محمد بركات البيلى

- المميزات العامة لشخصية الأمير عبدالله بن بلقين أمير مملكة غرناطة من خلال كتابه (التبيان) .

  د. نورة عبدالعزيز التويجرى .

٢ – عرض الكتب :

- البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة .

  تأليف الدكتور / محمد حرب

  عرض وتقديم أ. د. سيد أحمد على الناصرى

- **Nasser and American Foreign Policy (1952 - 1956)**

  تأليف : محمد عبدالوهاب سيد أحمد

  عرض وتقديم : أ. د. سيد أحمد على الناصرى



المؤرخ المصرى

العدد السادس عشر — يناير ١٩٩٦

المراسـلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **سيد أحمد الناصرى** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب – جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان – محافظة الجيزة

سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى

(٦٠٠ - ٩٠٠هـ / ١٢٠٠ - ١٥٠٠م)

الدكتور / غيثان بن على بن جريس

أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك

ورئيس قسم التاريخ - كلية التربية

جامعة الملك سعود - فرع أبها

أدت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقيا دوراً مُهِمّاً فى تشكيل تاريخ تلك المنطقة اقتصادياً وسياسياً ودينياً ، وغير ذلك من الجوانب الأخرى المرتبطة بالعامل التاريخى . ذلك أن الإمارات والمراكز التى أنشأها العرب المسلمون في تلك المنطقة ساهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى الساحل الأفريقى ، وعلى الأخص أثيوبيا والصومال ، ومن ثم إلى الداخل(١) . والواقع أن سواحل منطقة القرن الأفريقى كانت دائماً مراكز مهمة للمواصلات ، ومنطقة لاستقبال الهجرات منذ أقدم العصور ، وهى

---

(١) محمد بن حبيب . كتاب المنمق فى أخبار قريش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص٣٢ وما بعدها ؛ أبو محمد بن عبد الملك بن هشام . السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة : د . ت) جـ١ ، ص٣٢١ - ٣٢٢ ؛ السر سيد أحمد العراقى ." الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " . (ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة العربية الإسلامية - الخرطوم٢٨ /٣٠ يوليو ١٩٨٣م) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٥٩ - ١٦٠ ، غيثان ابن على بن جريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الأسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ١ ، ص٩ - ٣٧ .

الهجرات التى لعبت دوراً كبيراً فى تشكيل الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية فى منطقة حيوية هاجر إليها المسلمون ، وانتشروا فيها ، مما أدى إلى قيام ممالك إسلامية عرفت باسم " دول الطراز الإسلامى " وأهمها مملكة (أوفات) الإسلامية التى بلغت درجة كبيرة من التقدم والرفاهية فى العصور الوسطى فضلاً على ما أسهمت به فى نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، كما تزعمت حركة جهاد إسلامى ضد أباطرة الحبشة وبطارقتها .

والاهتمام بدراسة منطقة تعتبر من المناطق الإسلامية المهمة التى أدت دورها كاملاً فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية ، جدير بالعناية والاهتمام وذلك اعتزازاً بالتراث الإسلامى وحفاظاً له من الضياع ، وعملاً على تسجيله فى صفحات التاريخ ، فضلاً على إبراز الجهود الرائعة التى بذلت فى مجال نشر العقيدة الإسلامية فى تلك الحقبة . ومن هنا كان اهتمامنا بدراسة موضوع " مملكة أوفات الإسلامية " بوصفه من الموضوعات المهمة الجديرة بالبحث والتقصى ، إذ تمثل الفترة التي شغلتها تلك الدولة الإسلامية ، حلقة من حلقات تاريخ منطقة مهمة لم تحظ بنصيبها الكافي من الدراسة . وقد شملت مملكة (أوفات) الإسلامية سواحل وداخلية شمال وشرق جمهورية الصومال ، وجمهورية جيبوتى ، وبعض مناطق الصومال الغربى (أوجادين) حتى أطراف هضبة شوا الحالية وبعض مناطقها الشرقية ، كما امتدت فى بعض فترات سيادتها إلى معظم أجزاء أثيوبيا الحالية(١) .

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ، أنطونى سلرى . الجغرافية الاجتماعية لأفريقيا . ترجمة إبراهيم رزقانة ومحمد جمال الدين رزقانة(الإسكندرية ، ١٩٨١م) ص٢٥٦ -٢٥٨ ؛ غيثان بن على بن جريس . " الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى

لم تكن سواحل أثيوبيا والصومال مجهولة لدى شعوب العالم الخارجى منذ أقدم العصور ، إذ كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن وجود صلات قديمة ومستمرة بين هذه السواحل وشعوب العالم الخارجى . وقد اهتم العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية المتعلقة بتلك البلاد. وأشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن بلاد أفريقيا الشرقية،وخاصةأثيوبيا والصومال هم: المسعودى وابن حوقل والإصطخرى والأدريسى وأبو الفداء وغيرهم(١).

وهكذا كان العرب من أهم الشعوب التى اتصلت بأثيوبيا والصومال منذ القدم ، وقد نشطوا فى الاتصال بتلك المناطق منذ زمن دول معين وسبأ وحمير فى اليمن وكان لهذه الدول نشاط كبير فى الحركة التجارية البحرية والبرية إذ تمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم فى المحيط الهندى وسواحل شرق أفريقيا . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فىهذا المضمار، بعد أن تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة عقب تدهور دول الجنوب منذ

= العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجرى " (بحث منشور بمركز بحوث كلية التربية بأبها - جامعة الملك سعود ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١ - ٨ .

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ، على بن الحسين المسعودى . مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م) جـ٢ ، ص٣٤ وما بعدها ، أبو القاسم ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، تحقيق ام . دى غوى (ليدن ، ١٩٣٨ م) ص٣٤ وما بعدها ؛ إبراهيم بن محمد الإصطخرى . مسالك الممالك . تحقيق ام .دى غوى (ليدن، ١٩٢٧م) ص٧-٨ ؛ محمد بن عبد الله الإدريسى . كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (بيروت ، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م) جـ١ ، ص١٠٩ - ١٣١ ؛ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء . تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص١٥٢ - ١٦٣ ؛ السر العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية ...ص١٥٩ - ١٦١ .

القرن السادس الميلادى(١) ثم تدفقت مجموعات العرب والمسلمين بعد ازدهار الإسلام ديناً ودولة ، فأنشأوا المراكز والإمارات العربية ، ونشروا الإسلام بين القبائل الأفريقية التى كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبانتو والبجة ، ومن بينهم الأريتريون وغيرهم وقد حمل دعاة الإسلام إلى هذه البلاد حضارة ذات مظاهر ثلاثة :

١ - طابع الحضارة العربية من حرية العقيدة وحرية الفكر وعدم الجمود.

٢ - ثقافة عربية إسلامية جامعة شاملة لمختلف الفنون والعلوم .

٣ - الدين الإسلامى نفسه الذى يتلائم مع كل زمان ومكان .

وهكذا كان المهاجرون يحملون طابعاً جديداً بالإضافة إلى نشاطهم التجارى القديم وهذا الطابع الجديد يتمثل فى عقائدهم ومذاهبهم التى سادت فى بلادهم نتيجة لظهور الإسلام وماتلاه من نشوء الفرق والمذاهب الواحدة تلو الأخرى لنشر الدعوة ، وتحكمت فى ذلك عوامل اقتصادية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية ، إذ إنها جميعاً لم تصل فى وقت واحد .

وقد قامت الدعوة للدين الإسلامى فى أثيوبيا منذ ظهور الإسلام ، ويُؤَرَّخ لدخول الإسلام فى أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى للحبشة ، ثم كثر

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى ، تحقيق هوتسمان (ليدن ، ١٨٨٣م) جـ٢ ، ص١٧٧ ، أحمد بن يحيى البلاذرى . فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد . (القاهرة ، د .ت) ص١٥٣، ٧٠٣ ، جواد على . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ (بغداد ، ١٩٧٧م) جـ٢ ، ص٣٠١ - ٣٠٢

R . Coupland .
East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) pp . 15 - 16, A . Z . March & G. W. Kingsnorth. An Introduction to History of East Africa (London, 1966) pp. 8 - 9 ; P - Crone . Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) pp. 124 - 5; M . J . Kister " Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " Studies in Jahiliyya and Early Islam .(London, 1980) pp. 61 - 62 .

توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، حتى اضحوا يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية . كما أسهموا بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر ، كذلك اخترق عدد منهم الحدود الحبشية وأسسوا مراكز استقرار بالتدريج ، وتحكموا فى ثغور الحبشة المهمة التي كان من أهمها ميناء عدوليس(Adulis) مما أدى فى نهاية الأمر إلىالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية(١) . ونتيجة لذلك انحطت مملكة أكسوم الحبشية ، وهى المملكة المسيطرة على ذلك الجزء ردحاً طويلاً قبل ظهور الإسلام . وقد أخذ الإسلام بعد أفول أكسوم الحبشية يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطئ أرتيريا ،ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين فى معظم البجه ، وكذلك بين القبائل المتفرقة المسماة الجبرتة وقبيلة الدناقل (الدناكل) ، وتكونت على أثر ذلك مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لأفريقيا ، امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقديشو ومركة وبراوة وممبسة وزنجبار وكلوة . وفى الداخل من أثيوبيا امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً

---

(١) انظر ، جلال الدين السيوطى . أزهار العروش فى أخبار الحبوش . مخطوط ومصور عن نسخة بالأسكوريال ، ميكروفلم رقم (٢٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ورقة ٣٦ وما بعدها ؛ إبراهيم على طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى .(القاهرة ، ١٩٥٩) ص ٢٩ - ٣٠ . غيثان بن على بن جريس . "تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الإسلام " مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . العدد (٨) رجب ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ص٤١٢ - ٤٣٣ ؛ وللمؤلف نفسه .الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية " مجلة المؤرخ العربى . (القاهرة ، ١٩٩٥) العدد (٣) المجلد (١) ص٦٧ - ٨٥ .

Sir E. A. W. Budge .
A History of Ethiopia & Abassinia . (London, 1928) Vol . I . pp. 120 -122 .

واعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرق الحبشة ، كما امتد إلى مناطق السيدامو الشرقية وجنوب الحبشة(١) . وكثر المسلمون فى أرض البجة ، وشجعهم على ذلك غنى المنطقة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وامتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة ذلك دخول كثير من أهل البجة فى الإسلام . وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر التى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين(٢).

ومن المراكز التى تأسست فى منطقة شوا الشرقية بالحبشة مملكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى (نهاية القرن التاسع

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ يوسف فضل " انتشار الإسلام فى سودان وداى النيل " ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة الإسلامية (الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو تموز ١٩٨٣) (بغداد ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م) ص٢٥ - ٢٦؛ توماس أرنولد .الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧ وما بعدها .

J. S. Trimingham . Islam in Ethiopia (London, 1962) pp. 5 - 7, 32; Kamerer, Abyssinie et la mer Rauge (Le Cairo, 1929) p. 58; C. N. Stigand . The Land of Zing (London, 1913) pp. 104, 107; R . Reusch . History of East Africa (New York, 1961) pp . 18- 20 .

(٢) أحمد بن على المقريزى - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة د. ت.) ص٢٢ وما بعدها ؛ أحمد الحفنى القنائى . الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان (القاهرة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م) ص١٥ - ١٦ ؛ عبدالشافى غنيم عبدالقادر " البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية " البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة المعاصرة . أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩م .(القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٧٨ وما بعدها .

Yusul Fadl Hassan .
The Arabs and the Sudan (Khartoum, 1973) pp. 59 - 66 .

الميلادى) (٢٨٢هـ - ٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية تنسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب إليها خالد بن الوليد ويقال أن أفراد هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب بزعامة ود بن هشام لتستقر هناك فى منطقة من أخصب مناطقها وهى منطقة شوا(١) .

كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى فى تلك المنطقة ومايليها شرقاً فى عدل (Adel) وموراً (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعاً لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلاً على أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولاسيما تجارة الرقيق ، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية فى بلاد الحبشة وهى إمارة أوفات(٢).

ولعل الفترة البارزة فى التوسع الإسلامى فى أثيوبيا ، تقع بين القرنين (الرابع والسادس الهجريين) (العاشر والثانى عشر الميلادى) ، فهذه هى فترة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ، وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ، ولو على حساب بعضها البعض داخل الوطن الحبشى، فمثلاً تحولت منطقة نهر جوبا للإسلام حوالى عام(١١٠٨م)، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى(٣) .

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر حمدى السيد .الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص٣٥٠ - ٣٥١ ، غيثان بن على بن جريس " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ..." ص٧١ ، Trimingham, Islam in Ethiopia . pp . 50 ff .

(٢) أبو العباس أحمد القلقشندى . صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء (القاهرة ، ١٩٠٦ م) جـ٥ ، ص٣٢٤ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص١١ ، ٢٦٠ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٢ - ٣٢٣، غيثان بن على بن جريس ، الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ... " ص٧١ - ٧٢ ، Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . 62 ff .

فأصبحت هذه الرقعة الإسلامية الممتدة فى جزء من أفريقيا الشرقية تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية ، وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية ، ومن أجل هذا الوضع الجغرافى نعتها المؤرخون بمنطقة " الطراز الإسلامى " لأنها على جانب البحر كالطراز له(١) . واشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى : أوفات ، دوارو ، أرابينى ، هدية ، شرخا ، بالى ، دارة(٢) . وقد اتسم تكوين هذه الممالك بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة ؛ إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية ، ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية - فى أول أمرها على الأقل - ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى " حيث أصاب المسلمون الدار والقرار " فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج ، وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة ، وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ، فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرية(٣) .

---

(١) القلشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٣ - ٣٢٥ ، عبد الرحمن زكى . الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) جـ١ ، ص٧٧ - ٨٠ .

(٢) ابن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (القاهرة ، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) جـ١ ، ص١١ - ١٢ ، ١٨٤ - ١٨٥ ؛ إبراهيم طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص٩٥ وما بعدها .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى ، المعروف بابن بطوطة . تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) جـ٢ ، ص٧٣ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ..."ص٧٢ .

وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت فى أثيوبيا بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية(١) . أما الوضع السياسى لتلك الممالك الإسلامية فإنها كانت خاضعة لملك الحبشة ، وعليها أن تدفع ضرائب معينة فى كل سنة لملك الحبشة ، من القماش والحرير والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق(٢) .

وهكذا نجم عن انتشار الإسلام فى أثيوبيا قيام عدة إمارات ومراكز أهمها سلطنة أوفات الإسلامية ، وهىجميعاً مستقلة داخلياً وتدفع الجزية أحياناً لملك الحبشة ، وكانت الكنيسة القبطية فى مصر تكلف مبعوثيها فى بعض الأوقات، بمراعاة مصالح المسلمين فىالحبشة، فمثلاً تدخل بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) فىاختيار أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس، وذلك عام ٤٧٣هـ/١٠٨٠م، واشترط عليه رعاية جانب المسلمين، والاهتمام ببناء المساجد، والإكثار منها(٣) .

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ، جـ٢ ، ص٧٣ - ٧٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٣٣٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣ ؛ غيثان بن على بن جريس ." العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام " مجلة المؤرخ العربى بالقاهرة (١٩٩٣) العدد (١) ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) للمزيد من التفصيلات ، انظر . " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ص١٦٣ وما بعدها .

وقد سيطرت على ملوك الحبشة عدة عوامل فى صراعهم ضد المسلمين ، أهمها العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى ، والاستيلاء على مواطنهم لتوسيع مملكتهم . ويأتى بعد ذلك العامل الدينى ، فالحبشة مسيحية متعصبة لمسيحيتها ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينياً . وليس بغريب إذا علمنا أن الأرض التى سيطر عليها المسلمون فى الحبشة فاقت فى مساحتها أرض مملكة الحبشة المسيحية ، وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحيط الأقاليم المسيحية من الجنوب والشرق ، فضلاً على إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان في الشمال والغرب . وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلاً تاماً عن العالم الخارجى ، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع (ميناء أرتيريا الحالى على البحر الأحمر) ، وعدل هو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر ، مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة(١) .

غير أنه حدث لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام١٢٧٠م ، وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) (١٢٧٠ - ١٢٨٥) ، أن اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لدعم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين . ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة والموانئ ، مما جعل أثيوبيا فى علاقاتها الخارجية تحت رحمة المسلمين ، فذبلت المدن الأثيوبية التى كانت مزدهرة ومنها مدينة أكسوم العاصمة التى فقدت أهميتها وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها

(١) انظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ،جـ٢ ، ص٧٣ وما بعدها ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... ، ص٣٥ - ٤٠
Budge, A History of Ethiopia, Vol. I, pp . 373 ff; Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . ff .

قحط(١) . وعلى ذلك بدأ الصراع بين المسلمين فى أثيوبيا والحبشة المسيحية ردحاً من الزمن ، وتزعمت أوفات أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة حركة الجهاد ، وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، واستمر هذا الصراع بين المسليمن والحبشة المسيحية حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، حيث ظهرت فى الأفق قوى جديدة تتمثل فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون ، والبرتغاليون الذين قادوا حركة الكشف الجغرافى فسيطروا على سواحل زنجبار الشرقية فى المحيط الهندى ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه . كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهمم السابق ، ووجد المسلمون فى أثيوبيا عاملاً مهماً للارتباط بالعثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على سواكن وجزيرة زيلع ، وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون ، وهو عامل الاتفاق فى الدين ، فضلاً على ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية . وقد تحملت سلطنة أوفات الإسلامية عبء الجهاد الدينى مع الأتراك العثمانيين فى منطقة القرن الأفريقى ضد الحبشة المسيحية التى يساندها البرتغاليون(٢).

---

(١) انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(٢) الشاطر البوصيلى عبد الجليل .معالم تاريخ السودان ووادى النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص٦ وما بعدها . وللمزيد من التفصيلات عن دول الطراز الإسلامى السبع وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤ - ٣٣٠ ؛ المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص١٢٥ وما بعدها.

كانت الهجرة المخزومية (هجرة بنى مخزوم) هى أولى الهجرات العربية الإسلامية إلى منطقة القرن الأفريقى ، ونجح أحفاد ود بن هشام فى تكوين أول مملكة إسلامية فى منطقة القرن الأفريقى ، عرفت باسم مملكة شوا الإسلامية ، وكان ذلك فى عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، وحكمت المنطقة لمدة أربعة قرون ، واضطلعت بمسئولية نشر الإسلام فى الحبشة والصومال ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت أحوالها واضمحل نشاطها ، وكانت مرحلة احتضارها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى عندما مزقتها الخلافات الداخلية والصراع الخارجى ، حتى سقطت فى عام ١٢٨٥م على أيدى سلطنة أوفات الإسلامية التى توسعت نحو الداخل والساحل لنشر نفوذ الإسلام فى تلك المنطقة(١) ، وإن دل هذا على شئ ، فإنما يدل على مدى تغلغل النفوذ الإسلامى وسيطرته السياسية حتى بلغ منطقة " شوا " و "السيدامو " والواقع أن سلطنة أوفات الإسلامية التى تأسست فى القرن الثالث عشر الميلادى أدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين ، واضطلعت بالدور الأكبر فى نشر الفكر والثقافة الإسلامية ، والحفاظ على التراث الإسلامى الكبير الذى تركته المسلمون فى منطقة القرن الأفريقى ومنطقة أفريقيا على وجه العموم(٢) .

وقد وصفت سلطنة أوفات الإسلامية بأن أبعادها بلغت خمسة عشر يوماً طولاً ، وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد ، وكلها عامرة آهلة بقرى

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤ ؛ حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٤٣٢ - ٤٣٣ ؛ السر أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة ..."ص١٥٨ - ١٦١
Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 62 -3.

(٢) السر العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة ... " ص١٦٠ وما بعدها ؛
Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 58 ff.

متصلة ، وبها نهر جار ، وهى أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى سواحل اليمن ، كما أنها أوسع هذه الممالك أرضاً ، ويحكم ملكها على الزيلع، ويبلغ جيشها خمسة عشر ألفًا من الفرسان ، ويتبعهم عشرون ألفًا أو أكثر من الرحالة ، وخيلهم عِرَابُ ، ما يركبون البغال(١) ومن مدنها المهمة الأخرى ، بلقلزر ، وكلجور ، وسمق ، وسوا ، وعدل ، وحنا ، ولاو(٢) .

ويعتبر ابن فضل الله العمرى أول من وصف مملكة أوفات الإسلامية وأخواتها من ممالك الإسلام فى قرن أفريقيا ، وصفًا دقيقًا ، اعتمد عليه اللاحقون اعتمادًا يكاد يكون حرفيًا ، واستمد معلوماته من فقهاء زيلعيين برئاسة الفقيه عبد الله الزيلعى ، قد وفدوا على مصر المملوكية وسلطانها "الناصر محمد بن قلاوون" مابين (٧٣٣ - ٧٣٩هـ) لأداء مهمة تتعلق بأمور ممالك المسلمين فى منطقة القرن الأفريقى ، ونقل عنهم العمرى أخبار هذه الممالك السبع (الطراز الإسلامى) ، وسجل أخبارهم فى كتابه الذى شمل أخبار جميع ممالك الإسلام فى أنحاء العالم الإسلامى . ويذكر العمرى فى بداية كتابه أنه لم ينقل إلا عن أعيان الثقات ، من ذوى التدقيق فى النظر ، والتحقيق للرواية(٣) .

وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) كتب المقريزى رسالة " الإلمام " ، ونقلها من أفواه رواة قادمين من بلاد الزيلع أثناء موسم الحج سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م ، وأطلق على ممالك المسلمين فى منطقة القرن

(١) للمزيد من التفصيلات عن طبيعة سلطنة أوفات ، انظر ، أبو الفداء . تقويم البلدان ، ص ١٦٠ -١٦١ ؛ العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ورقة ١٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢ وما بعدها .

الأفريقى اسم " بلاد الزيلع " وطول أرضها براً وبحراً حوالى مسيرة شهرين وعرضها أكثر من شهرين ، إلا أن غالبها قفار غير مسكونة ، ومقدار العمارة مسافة ثلاثة وأربعين يوماً طولاً فى عرض أربعين يوماً ، وتتقسم إلى سبع ممالك ، ولكل مملكة من الممالك السبع ملك ، وطول مملكة أوفات خمسة عشر يوماً فى عرض عشرين يوماً كلها عامرة بالقرى ، وملك أوفات يحكم على الزيلع ، وهى بلاد حارة(١) .

لقد غطت مملكة أوفات على كل سهل زيلع وشرق شوا والمنحدرات المؤدية إلى أودية هواش ، وإلى خليج عدن والمحيط الهندى . وبمعنى آخر ، فقد سيطرت على أجزاء هامة من سواحل جمهورية الصومال الشمالية والشمالية الشرقية ، وجمهورية جيبوتى ، وإقليم هرر فى الصومال الغربى (أوجادين فى الحبشة حالياً) ، كما أن قبائل العفر (الدناكل أو الدناقل) حول بحيرة أوسا كانوا يدينون لحكامها بنوع من الولاء ، وحينئذ كانت تسيطر على طرق التجارة المتجهة إلى زيلع ، وهى الأولى من بين الممالك الإسلامية التى تتمتع بأهمية سياسية وعسكرية كبيرة(٢) .

وقد وصف الرحالة الطنجى " ابن بطوطة " سنة ١٣٣١ مدينة زيلع فذكر أنها للبربر السودان " ومذاهبهم شافعية " وبلادهم صحراء مسيرة شهرين،أولها زيلع وأخرها مقدشو، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة(٣).

---

(١) انظر ، المقريزى ، الإلمام ، ص٦ - ٧ .

(٢) انظر ،
Ullendorff, Ency off Islam, art " Habashs " Vol . 3, Taddesse Tamrat . Church and State in Ethiopia 1270 - 1527 . (Oxford, 1972) pp . 134 - 5 .

(٣) للمزيد انظر ، ابن بطوطة ، تحفة النظار... (طبعة بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) جـ١ ، ص٢٧٩ - ٢٨٣ .

وهناك إشارة أخرى أوردها الجغرافى المشهور بالدمشقى أكثر تفصيلاً للمناطق الساحلية ، إذ سمى كل منطقة باسم سكانها ، وأطلق على خليج عدن اسم بحيرة بربرة ، وأشار إلى بلاد الحبشة وأرض باضع وجبرة (على ساحل البحر الأحمر الغربى) (١) ، وساحل زنجبار وأرض الزيلع ، وأرض أوتل . ويقصد بأرض جبرة بلاد مملكة أوفات ، كما أن اسم " أوتل " تحريف اسم عدل أو أودل الصومالى(٢) .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية الإسلامية إلى هذه الأماكن الداخلية فى سهول زيلع وهضبة هرر ومنحدرات شوا ، وإقليم وادى الصدع الكبير ، وبالى وسيدامو ، وامتزجوا بالوطنيين ، وأخذت الأسلحة تنتشر تدريجياً ، حتى تأسست ممالك إسلامية فى تلك البقعة ، وأقدمها مملكة شوا الإسلامية حوالى(٢٨٣هـ/٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية مخزومية،سبقت الإشارة إليها(٣).

كذلك قامت بعد ذلك عدة مشيخات إسلامية فى المناطق الداخلية والساحلية ، منها سلطنة " عدل وموروا وهوبات وجيدايا ، إلا أنها لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات فيما بينها ، وسرعان ماطوتها إحدى أقوى الممالك الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وهى مملكة أوفات الإسلامية .

---

(١) شمس الدين محمد الأنصارى الدمشقى . نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . (بطرس بورغ ، ١٨٦٥م) ص ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) أودل (Awadel) اسم محلى أطلقه الصوماليون على مدينة زيلع وما يجاورها من البلاد . وهو مركب من (Aw) أى الشيخ . ودل (Dal) تعنى الوطن ، ويكون وطن الشيخ أو العلماء . ويعتقد أنه تحريف لكلمة عدل التى اشتهرت بها مملكة عدل الإسلامية التابعة لمملكة أوفات .

(3) Trimingham. Islam In Ethiopia. pp . 58 ff .

وقد أسس مملكة أوفات قوم من قريش ، فمنهم من يقول هم من بنى عبد الدار ، ومنهم من يقول إنهم من بنى هاشم ، ثم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز ونزلوا أرض جبرة التى اشتهرت بجبرت ، وهما من أراضى الزيلع ، واستوطنوا بها وأقاموا بمملكة " أوفات " . وعرف جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم " عمر ولشمع " . حكم عمر هذا مدينة أوفات وأعمالها لمدة طويلة ، وصارت له بها شوكة قوية حتى مات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ، ملكوا أوفات من بعده واحد منهم بزو ، ومنهم حق الدين الأول ، حتى كان آخرهم صبر الدين محمد الذى ملك أوفات سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) وطالت مدته(١) .

وإذا كانت المصادر قد أجمعت على أن عمر ولشمع هو مؤسس مملكة أوفات، إلا أن تاريخ تأسيسها يكتنفه الغموض ، فعلى حسب رواية المقريزى، حكم عمر أوفات مدة طويلة ، ثم خلفه أبناؤه الأربعة أو الخمسة ، حتى آلت السلطنة إلى آخرهم " صبر الدين محمد " فى حوالى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) . ومن هنا يرجح أن تأسيس هذه المملكة يرجع إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى وتشير الرواية إلى أن نسبه يصل إلى الحسن بن على ابن أبى طالب(٢) ، إلا أن هذا الإدعاء لم يسلم من نقد المؤرخين الذين ذكروا

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤-٣٣٠، المقريزى ، الإلمام ، ص٩ وما بعدها ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... ص٣٢ – ٣٨ .

(٢) المقريزى ، الإلمام ، ص١١ وما بعدها ، الشيخ أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة .(مقديشو ، ١٩٧١م) ص٦٩ – ٧٣ ؛ الحسين بن يحى بن الحسين بن القاسم . غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى , تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) جـ٢ ، ص٤ –٧ .

أنهم مثل كثير من الأسر الإسلامية التى حكمت بلاداً إسلامية ، ادعت نسبها إلى الرسول ﷺ ، أو آل البيت ، أو النسب القرشى ، أو الأصول العربية عامة.

ومهما يكن من أمر ، فقد شرع عمر ولشمع فى توسيع نفوذ مملكته على حساب ممالك ومشايخ إسلامية فى المنطقة ، ويبدو أنه بدأ توسعه على حساب مملكة شوا الإسلامية ، ثم أرسل حملات متعددة بعد ذلك إلى جيدايا وعدل وMورا وهوبات وزنجبار ، وتمكن من إخضاعها جميعاً . ثم امتد نفوذ هذه المملكة إلى شواطئ النيل الأزرق ، وامتد غرباً إلى أقليم نهر " أنكوى ". وكما بسطت أوفات نفوذها شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر فى منطقة الزيلع وسهل أوسا ، فقد وصلت سيطرتها جنوباً إلى شبه جزيرة حافون فى المحيط الهندى ، وبالتالى أصبحت مملكة أوفات تتحكم فى مساحة واسعة من أراضى متنوعة الموارد ، وسيطرت على كثير من الطرق التجارية البحرية منها والبرية ، فأصبح لها مركز الزعامة والصدارة على جميع الممالك التى قامت فى المنطقة(١) .

وفى ظل هذا المركز السياسى والدينى والاقتصادى ، حفل تاريخ هذه المملكة الإسلامية بالصراع من أجل البقاء ونشر الدين الإسلامى بين سكان منطقة القرن الأفريقى . ذلك أنه ما كاد يكتمل نموها وقوتها حتى خاضت غمار حروب طال أمدها ، استنزفت كثيراً من مواردها ، وأضحت شغلها الشاغل ، ودمرت كثيراً من المدن والقرى والمساجد ودور العبادة الأخرى . وقد أضعفت هذه الحروب نشاط مملكة أوفات الثقافى والحضارى . ومن جهة

(١) للمزيد ، انظر : إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ... ، ص٣٢ – ٣٧ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص٤٥٢ – ٤٥٦ ؛
Trimingham , Islam in Ethiopia, pp . 67 - 8 .

أخرى ، توقف نشاط الدعوة من أجل نشر الإسلام وحضارته وثقافته وبقائه فى منطقة القرن الأفريقى ، وذلك بسبب الصراع الدموى بين المسلمين والمسيحيين فى تلك البقعة الأفريقية(١) .

ومع ذلك فإن مملكة أوفات الإسلامية ظلت على جانب كبير من القوة والعظمة منذ أيام مؤسسها " عمر ولشمع " ، نظراً لسيطرتها على منطقة استراتيجية واسعة . ويقال إنها خضعت فترة من الزمن لمملكة داموت الوثنية(٢) التى حكمت الجزء الجنوبى الشرقى لهضبة شوا ، إلا أن هذا الخضوع لم يدم طويلاً فسرعان ما تمكن عمر ولشمع فى بداية تأسيس دولته من القضاء عليها وضمها إلى مملكته(٣) .

---

(١) انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص٤٣٩ - ٤٤١ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور " بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ".مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،عدد (١٤) (١٩٦٨م).

F. F AL-Varis . (A Portuguese) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During the Year 1520 - 1527 Trans by Lord Stanley (London, 1881) pp . 311 - 314, 393 ff .

(٢) تقع بلاد داموت عند منابع نهر هواش فى الجزء الجنوبى الشرقى من هضبة شوا ، ومازالت وثنية حتى فتحها الوزير عدلى (Adli) فى أيام الأمير أحمد بن إبراهيم ، وللمزيد ، انظر : شهاب الدين أحمد عرب فقية . تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت(القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص١٧، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٦٥ ، ٣٠٨.

(٣) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة ، ١٩٦٦م) جـ٣ ، ص٤٣٢ - ٤٣٣ ؛ المقريزى ، الإلمام ص١٠ - ١٢ .

ويعتبر حق الدين محمد الثانى المؤسس الثانى لمملكة أوفات الإسلامية، واستمر حكمه لمدة عشر سنوات (٧٦٦ - ٧٧٦هـ / ١٣٦٤ - ١٣٧٤م) . وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان سعد الدين أبو البركات ، واتسعت المملكة وازدهرت فى عهده ، وكثرت عساكرها ، وذلك لما اتصف به من الحنكة السياسية ، وحسن تدبير أمور المملكة ، وفتح كثيراً من البلاد مثل بلاد زلان ، وبالى ، وامحرة ، وروعت أعماله وجهاده مملكة الحبشة المسيحية(١) .

على أن مملكة أوفات الإسلامية لم تسلم مما كان يحدث فى غيرها من الممالك من تنافس بين الأمراء ، وحروب على السلطة ، كما أنها كانت مطمعاً لكثير من ملوك الحبشة المسيحيين ، فشنوا عليها الغارات ، إلا أنها صمدت وخاضت المعارك الحربية العديدة صوناً للعقيدة الإسلامية ، ويدل بقاؤها على مسرح الحوادث وخوضها لحروب الجهاد (النصف الثانى من القرن العاشر للهجرة / النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلادى) على أنها كانت على جانب كبير من القوة التى مكنتها من المحافظة على استقلالها طوال تلك الفترة . وكان شهاب الدين بن سعد الدين من ملوك تلك الفترة فى أوفات ، ممن ساروا فى طريق الجهاد ، وتوسيع نطاق نفوذ المملكة ، ونشر العدالة فى ربوعها ، كما تطلع إلى استعادة الممالك الإسلامية التى وقعت فى أيدى النصارى ، فتمكن من استعادة هدية ، وبالى(٢) .

---

(١) انظر ، المقريزى ، الإلمام ، ص١٩ - ٢٠ .

(٢) شوقى عطا الله الجمل . سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص١٩٥ ؛ محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص٥٠ - ٥١ .

وقد أظهر أبناؤه من بعده حزماً ، وبذلوا مجهودات جبارة لإعادة فتح البلاد والتوغل إلى داخل مملكة الحبشة المسيحية نفسها ، واسترجاع مملكة أسلافهم ، وأعادوا الأمن والاستقرار إلى ممالك بالى ، وهدية ، ودوارو ، التى نجحوا فى استعادتها من ملك الحبشة المسيحى فازدهرت مملكتهم فى القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك لسيطرتهم على الموانئ المشهورة : زيلع ، وبربرة ، وتاجورة ، كما سيطروا على منطقة هرر الغنية بمحاصيلها الزراعية ، فضلاً على الطرق التجارية من والى مدينة هرر التى تقع على رأس مثلث قاعدته زيلع وبربرة . وكان ازدهار مملكة أوفات التجارى نتيجة لازدهارها السياسى ، وموقعها على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعدها عن مركز القوة الذى تسيطر عليه الحبشة المسيحية على الهضبة الأثيوبية فانتظمت طرق القوافل التجارية بين الساحل والظهير القارى ، فضلاً عن انتظام التجارة الخارجية وازداد انتشار الإسلام فى المنطقة بازدياد قوته السياسية متمثلة فى مملكة أوفات الإسلامية(١) .

يذكر الفاريز Al - Varis مُرَافِقُ رحلة البرتغال إلى الحبشة سنة ١٥٢٠ - ١٥٢٦م ، أن مملكة أوفات كانت ممتدة الأرجاء ، وتسيطر على الأراضى التى تطل على رأس قرن أفريقيا " رأس جاردافوى " كما كانت تمتلك زيلع وبربرة ، وأنه كانت لهذه المملكة علاقات وطيدة وقديمة مع

---

(١) انظر :

F. F. AL Varis . (Father from Cisco) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During thhe Years 1520 - 1527 . trans and edited by Lord Stantey (London , 1881) pp. 346 - 349 .

السلاطين والملوك المسلمين ، وخاصة فى اليمن ومصر ، وكذلك أشراف مكة ، وكان هؤلاء الحكام يرسلون إليها الأسلحة والخيول لمعاونتهم فى حروبهم ضد أباطرة الحبشة(١) .ومنذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ظهر فى أوفات أمراء متحمسون للإسلام ونشر العقيدة الإسلامية يساعدهم الفقهاء والعلماء ، وقد نقل السلطان " أبو بكر بن محمد " عاصمة السلطنة إلى مدينة هرر سنة ٩٢٨هـ/١٥١٢م ، وذلك لأسباب محلية وعالمية ، ومنذ ذلك الحين تظهر أهمية مدينة هرر ، التى برزت فيها قوة المسلمين ، فاتسعت رقعة المملكة ، وضمت إلى أملاكها نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة ، فضلاً على جميع مناطق ممالك المسلمين فى القرن الأفريقى ، وانهارت قوى الأحباش التى التزمت جانب الدفاع(٢) .

وقد واجهت مملكة أوفات الإسلامية منذ قيامها مشاكل عديدة ، من أهمها : تلك التى جاءتها من الحبشة المسيحية وكانت الديانات السماوية ، اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام تعيش جنباً إلى جنب ، بطريقة سلمية لعدة قرون فى منطقة قرن أفريقيا ، فتركز النصرانية واليهودية على المرتفعات ، ويتركز الإسلام فى المنخفضات الشمالية والشرقية والجنوبية . ومنذ أن عادت الأسرة السليمانية إلى عرش الحبشة ، وتحرك مركز المسيحية نحو أمهرا (أمحرا) فى الجنوب ، تطلعت هذه الأسرة إلى السيطرة على مملكة أوفات الإسلامية ، لأن أوفات كانت تسيطر على بلاد واسعة ذات إمكانات

---

(١) إبراهيم طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية ...، ص٦٦ وما بعدها .

(٢) انظر : الشاطر البوصيلى ، معالم تاريخ السودان ...، ص١٠ – ١٢ ؛ حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٤١ – ٤٤٣ ،
Roland Oliver and Antony & Atomore . The African Middle Ages 1400 - 1800 (Cambridge, Univ. Press,) pp . 45 - 46 .

هائلة ، كما تسيطر على طرق التجارة بحزم . هذا ، بالإضافة إلى أن أوفات كانت تمتلك جيشاً قوياً، وتنظيماً إدارياً محلياً ومتقناً ، فاستطاعت أوفات بهذه القدرات الهائلة أن تجابه الحبشة المسيحية التى تحاول القضاء على هذه المملكة الإسلامية العظيمة ، وهذا وحده عمق الصراع الطويل بين المملكتين الذى امتد إلى بعض العصور الحديثة ، مما يثبت دون شك أن المنطقة صارت مسرحاً لحروب صليبية واسعة النطاق استمدت أسبابها من قوى عالمية خارج الحبشة ، لها أهدافها المحلية والعالمية ، مخفية حيناً ومعلنة حيناً آخر ، تدفع الحبشة نحو التحامها بمملكة أوفات حتى تخضعها ، ويتسنى لها السيطرة على منافذ البحر الأحمر ، وبالتالى تستطيع أن تنفذ أهدافاً صليبية عامة ، ولايمنع ذلك امتزاج عوامل اقتصادية بأخرى دينية سياسية(١) .

وكان أن برزت الأخطار على مملكة أوفات الإسلامية فى زمن ملك الحبشة يجباصيون Yagba Seyon (١٢٨٥ - ١٢٩٤م) واستعدت أوفات لمواجهة هذه الأخطار ، وبدأ الصراع بينهما فى شكل مناوشات بسيطة ومحدودة على الحدود والتخوم التى تفصل بين مملكتى الفريقين ، إلا أن ذلك قد تطور فيما بعد ، مما أدى إلى نشوب قتال ومعارك طاحنة بينهما . وقد جرد ملك الحبشة حملة على مملكة عدل - إحدى ولايات أوفات - ويرجع ذلك إلى إلقاء سلطات عدل القبض على مبعوث حبشى قدم من بيت المقدس ، وأجبرته على الختان بعد أن رفض اعتناق الإسلام ، ويقال أن إمارتين إسلاميتين ، عاونتا ملك الحبشة فى هذا الهجوم الذى أدى إلى

---

(١) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ص٤٣ - ٤٤ ، Jean Doress. Ethiopia (London, 1959) p . 5 - 11 ; Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . 68 - 70 .

نهب بلاد " عدل " ثم عقدت هدنة بين الطرفين ، فتحت بموجبها الحدود بين البلدين(١) ، ولكن رغم هذه الهدنة المعقودة ، فإن كلاً منهما كان يحاول الاستعداد والتقاط أنفاسه ، وانتهزت أوفات فرصة تصارع وتكالب أبناء يجباصيون على السلطة ، فشنت هجمات متتالية على الحبشة واتخذت الجهاد ديناً وعقيدة ، واستطاعوا خلالها تقوية مراكزهم فى المنطقة(٢) .

وفى عام٦٩٨هـ - ١٢٩٨/٩٩) قام الشيخ محمد أبو عبد الله أحد شيوخ مملكة أوفات ، بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها قضاءً مبرماً لاعتداءاتها المتكررة على المسلمين والديار الإسلامية ، وحشد حوله مائتى ألف مسلم من الصومال والجالا ، وأعدهم للجهاد ، وغزا الحبشة ، التى اضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود الشرقية(٣) .

كذلك ازدادت قوة مملكة أوفات أيام السلطان " صبر الدين محمد بن عمر ولشمع (٧٠٠ - ٧١٦هـ/١٣٠٠ - ١٣١٦م) الذى لم يستطع ملك الحبشة ودم أرعد (Wedam Arad) (١٢٩٩/ ١٣١٤م) أن يرد هجماته القوية ،

(١) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية... ص٤٥٤ - ٤٥٥ ، إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص٥٠ ؛ عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون ....، ص٣٣٢ ، توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ص١٣٥ .

(٢) للمزيد ، انظر : عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون ، ص٣٣٢ - ٣٣٤ ، توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص١٣٥ - ١٣٧ .

(٣) الشاطر البوصيلى ، معالم تاريخ السودان ....، ص١٣ - ١٤ ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص٥٠ - ٥١ .

ويقال إنه بعث رسالة إلى البابا كليمت الخامس فى أفنيون بفرنسا ، وربما كانت لغرض روحى بحت ، أو لطلب مساعدة مادية ضد مملكة أوفات الإسلامية(١) .

ثم كان أن تمتعت المنطقة بفترة هدوء نسبى حتى عهد السلطان جمال الدين الأول (٧٢١ - ٧٧٨هـ) وانتهجت السلطة فى عهده سياسة التوسع فى أملاك الحبشة على أن الحرب استؤنفت بين الجانبين خاصة فى عهد ملك الحبشة يجباصيون الذى أعد حملة تعتبر من أشد الحملات الحبشية ضد مملكة أوفات فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، ومنذ ذلك الحين اتسمت الحروب بطابع القسوة والشدة والوحشية بينهما منذ عام ١٣٢٩م ، وتحمل الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، وأحرقت أماكن العبادة، وقتل رجال الدين ، وخرب المسلمون الكنائس والأديرة وقتلوا الرهبان رداً على أعمال الحبشة الوحشية ضد المسلمين ، كما دخلوا مدناً مسيحية ، فى أثناء زحفهم على الحبشة ، وقتل الأحباش الأبرياء وخربوا المساجد ، واستمرت الحروب على هذه الطريقة لمدة ثلاثة قرون ، تهدأ حيناً ، وتثور أحياناً أخرى حسب ظروف وقوة وضعف حكام الطرفين ، لكنها فى كل الأحوال جهاد بين الهلال والصليب ، وتوسعت مجالاتها وميادينها ، بل تحولت إلى نزاع عالمى اشتركت فيه قوى خارجية لمساعدة الطرفين مثل

(١) للمزيد ، انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ...ص ٤٥٣ ؛ عبدالرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص٤٤ ؛ جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، (القاهرة ، ١٩٧٥م) ص١٢٨ - ١٢٩ .

R. Burton . First Foot Steps in East Africa (London, 1966) pp . 1781 - 2 .

المماليك والعثمانيين ودولة البرتغال المسيحية . ويظهر واقع حملة (عمدا صيون) على مملكة أوفات ، مدى الصعوبات التى كانت تواجه مملكة أوفات بشأن توحيد الجبهة الإسلامية ضد الحبشة ، وذلك راجع إلى طبيعة تكوين الممالك الإسلامية المبعثرة فى مساحة أرضية شاسعة وسيئة المواصلات ، تتخللها قبائل بدوية وثنية ، وشعوب زراعية قلما تميل إلى الحروب كشعوب سيداما الزراعية ، فأدت هذه الظروف البشرية منها والطبيعية إلى أن أصبح أمر تنظيم الجيش وترحيله من منطقة إلى أخرى ، حسب متطلبات الجهاد ، أمراً فى غاية الصعوبة ، فحلَّتْ الهزائم على أوفات وأخواتها على الرغم مما أبدوه من مقاومة باسلة وجهاد متصل(١) .

وهكذا تضافرت عدة عوامل لإضعاف مملكة أوفات الإسلامية وسقوطها فى النهاية فكانت هناك عوامل داخلية خاصة بمملكة أوفات وظروفها الداخلية كالحروب الطويلة الأمد التى خاضتها ، والتنافس على السلطة بين أمرائها . أما العوامل الأخرى الخارجية فتتمثل فى نجاح البرتغاليين فى الدوران حول قارة أفريقيا ، وتحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومحاولة سيطرة البرتغاليين على منافذ البحر الأحمر ، والتحالف مع الحبشة ، مما أدى إلى صراع مملوكى برتغالى حول هذه التجارة ، وإنقاذ العالم الإسلامى من سيطرة صليبية ، فاشتدت ضراوة

---

(١) شهاب الدين عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٤٩ – ١٥٧ ، سعد بدير الحلوانى . " الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها على العالم العربى فى أواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة " . الصراع بين العرب والاستعمار فى عصر التوسع الأوربى الأول (ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ٢٥ – ٢٦ جمادى الآخرة (١٤١٥هـ) ٢٨– ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤م (القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص٢٠٢ ومابعدها .

الحروب بين المسلمين والصليبيين فى القرن الأفريقى ، مما أدى فى النهاية إلى سقوط كل من اليمن ومصر على أيدى الأتراك العثمانيين الذين حملوا لواء الجهاد الإسلامى ضد البرتغاليين فامتدت سيطرتهم إلى شواطئ مملكة أوفات التى تأثرت بالكشوف البحرية . وكان الأحباش قد التفوا حول القوة البرتغالية التى أحرزت النصر على جيش المسلمين لوفرة الأسلحة النارية البرتغالية ، وكان الجيش الإسلامى يقوده المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم (الجران)(١) الذى طلب مساعدة العثمانيين باعتبارهم أقوى قوة إسلامية فى الشرق العربى آنذاك ، فأرسل إليه مصطفى باشا النشار أول ولاة العثمانيين فى اليمن (١٥٤٠ - ١٥٤٥م) حملة مكونة من خمسمائة جندى ، وقيل تسعمائة ، مزودين بالبنادق ، ومنذ ذلك الزمن اتخذ الصراع فى القرن الأفريقى صفة الصراع الدولى(٢) .

وكان انتصار البرتغاليين ومفاجأتهم للجيش الإسلامى عام ٩٤٩هـ / ١٥٤٣م واستشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم (الجران) ، ضربة قاصمة للقوى الإسلامية ، فمنذ ذلك الحين نجح البرتغاليون فى تطويق العالم الإسلامى لسيطرتهم على مياه المحيط الهندى ، وتهديدهم المباشر لمنافذ الخليج العربى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية (القاهرة ، ١٩٦٣م) جـ٢ ، ص١١٩٨، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة ، د . ت) ص١٦٩ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب ، انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٠٩ ، شوقى الجمل . (تطور العلاقة بين الكنيستين المصرية والأثيوبية وانعكاساتها على العلاقة السياسية بين الدولتين) (الندوة الدولية للقرن الأفريقى ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٧م ، جـ٢ ، ص٦٦٧ - ٦٦٩ .

والبحر الأحمر وتحويل طريق التجارة العالمية ، والقضاء على القائد الإسلامى المشهور فى قرن أفريقيا " أحمد بن إبراهيم " بتحالفهم مع مملكة القديس يوحنا ،ثم رجحت كفة الحروب بين المسلمين والمسيحيين بالتدخل الأوربى(١).

على أن سقوط مملكة أوفات ، لم يكن يعنى ضياع السلطة الإسلامية فى المنطقة ، فقد تحولت السلطة السياسية إلى " سلطنة هرر " المستقلة ، يحكمها أمراء مستقلون عن السلطة المسيحية التى نجحت فى الاستيلاء على معظم مملكة أوفات الإسلامية بمساعدة أوربية .

أما الأحوال العامة لمملكة أوفات الإسلامية ، فالثابت أنه دانت لها قبائل وممالك إسلامية بالطاعة والولاء ، فاستطاع آل ولشمع إدارة البلاد بمهارة فائقة ، وحكموا حكماً عادلاً ، وبسطوا الأمن والاستقرار ، وطبقوا الشرع الإسلامى ، وأسسوا نظاماً قضائياً مستمداً من الكتاب والسنة ، وأقاموا حضارة إسلامية شامخة ، وانتهج مؤسسوا مملكة أوفات (الولشمعيون) منهجاً وراثياً فى الحكم ، واتخذوا ألقاب سلاطين وملوك(٢) .

أما التنظيم الإدارى ، فقد قسم السلاطين مملكتهم إلى عدة أقسام إدارية، فقسموها إلى إمارات وأقاليم يحكمها أمراء أمصار يعينهم السلطان أو الملك ، ويوصيهم بالخير والصلاح ، وأن يحفظوا البلاد ، وأن لا يأتى من قبلهم مايؤذى المسلمين ، وأنهم ليسوا من الأسرة الحاكمة فقط ، وإنما من مختلف الأمم والشعوب التى تخضع لحكمهم(٣) .

---

(١) انظر : العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٢ ، ١٨٨ ، المقريزى ، الإلمام، ص٥ – ١٢ ، أحمد شلبى. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٨م) ج٦ ، ص٧٠٩ – ٧١٠ .

(٢) المقريزى ، الإلمام ، ص١٠ – ١٦ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٠٤ ، ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص٥٥ .

أما لقب الوزير فقد ظهر فى عهد السلطان " صبر الدين الثانى " ولم يوضح مخصصاته الإدارية والسياسية ، ولكن الظاهر أنهم استخدموا لقب الوزير كلقب الأمير ، سواء أمير الجيش أو الأمصار . وقد ذكر عرب فقيه أن أحمد بن إبراهيم قائد الجيش الإسلامى فى أوفات عين عدداً من الوزراء يأتمرون بأمره كالوزير عدلى ، وعباس ، ومجاهد ، ونور بن إبراهيم ، ومناصبهم الإدارية والقيادية كالأمراء(١) .

ولما كانت الشورى فى الحكم الإسلامى ، تقوم مقام الرقابة الإدارية ، فإن مظاهرها تجلت فى مجالس حكم السلاطين والأمراء فى مملكة أوفات ، وكان السلطان يعقد مجلسه تحت شعائر وترتيبات مرعية ، ويجلس الملك على كرسى مطعم بالذهب ، ارتفاعه أربعة أذرع ، وأكابر الأمراء حوله على كراسى أخفض من كرسيه ، وبقية الأمراء وقوف ، ويحمل رجلان على رأسه السلاح ، ثم ينظر فى المظالم التى تعرض عليه(٢) .

وكانت الشورى من أكبر العوامل التى ساعدت أحمد بن إبراهيم فى انتصاراته العظيمة على الحبشة المسيحية ، وأعطى اهتماماً خاصاً باستشارة أمرائه وقواته(٣) ، وكان التشاور يجرى دائماً عند اختيار كل سلطان جديد ، وكان يشترك فى ذلك الأمراء والقضاة وأمراء الأمصار وقادة الجيش(٤) .

---

(١) المصدر نفسه،وللمزيد من التفصيلات العمرى:مسالك الأبصار،جـ٢،ورقة١٨٣-١٨٤؛ المقريزى ، الإلمام ، ص٧ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) انظر: تفصيلات أكثر . حسن جوهر . الصومال (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص١٤-١٦.

(٣) عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص٦٢ _ ٧٣ ، ١٠٣ ، ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤) للمزيد ، انظر : المقريزى ، الإلمام ، ص٤ -٧ ، العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢، ورقة ١٨٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣٤ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص ٢٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ .

وكان السلطان يقود الجيش بنفسه ، ويضرب عند خروجه للحرب بوق كبير مصنوع من خشب شجرة الحنبا ، وكانت الأبواق والطبول والطاسات والنقارات وسيلة إعلامية محلية ، استعملت لجمع أفراد الجيش وأمراء القبائل ، خصوصاً عندما تصل إلى العاصمة أو المعسكر أنباء انتصارات أحرزها الجيش الإسلامى فى جبهة من جبهات القتال ، أو لخبر أليم كنعى السلطان(١) . وعلى الرغم من أن قيادة الجيش من وظائف السلطان ، فإنه لتعدد جبهات القتال كان لكل أمير ولاية سلطة قيادة جيشه ، وشن الغارات ، وإنفاذ الجيش إلى وجهته ، كما كان السلطان يعهد لبعض الأمراء بقيادة السريا ، وجرت العادة أن يأمروا قوادهم أن لايقاتلوا الناس حتى يعرضوا عليهم الإسلام ، فإن أبوا ، فالجزية ، وإلاّ فالحرب(٢) .

وانقسم الجيش فى المعارك الحربية إلى قلب وميمنة وميسرة ، كل منها مقسم ، إلى فرق لها أمراء وأعلام مختلفة الألوان والأشكال ، وتحكمها قيادة عليا فى قلب الجيش ، وعندها علم المملكة ، حيث إن فيها السلطان أو القائد العام للجيش . وبما أن قبائل إسلامية دخلت الحروب مع الجيش النظامى ، فإن أمير الفرقة أو الميمنة أو الميسرة كلها ، قد يكون زعيم أقوى قبيلة فى تشكيل الفرقة أو الميمنة ، وتوزع فرقة رماة السهام بين الفرق المختلفة ، وتنقسم الخيول إلى هجوم واحتياطى يحمى وراء ظهورهم .. وقد استخدم المسلمون الدفاعات والتحصينات ، وعرفوا حروب القلاع ، والاستخبارات العسكرية ، والاستعانة بالأدلاء فى المواقع المجهولة ، وإرسال قوات الاستطلاع إلى المواقع الأمامية ، وتنظيم حراسة معسكرات الجيش على شكل

(١) عرب فقية ، فتوح ،ص٢٧٣ ، ٢٩٨ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول ... ،ص٣٦ – ٣٩ .

(٢) عرب فقية ، فتوح الحبشة ،ص٤٠ – ٤١ ، الشيخ زيراش ،كشف السدول ،ص٥٧ – ٥٩ .

الدوريات والورديات(١) ولمملكة أوفات راية خضراء مكتوب فى وسطها " لاإله إلا الله محمد رسول الله " وبدلها الإمام أحمد بأخرى بيضاء وأطرافها حمراء مكتوب عليها آيات قرآنية ، وأبيات من الشعر منسوبة إلى على بن أبى طالب ، وبعض الأوسمة(٢) .

وكان القضاء على مذهب الإمام أبىِ حنيفة ، وبعض الإمارات الأخرى تقوم بالإفتاء على مذهب الإمام الشافعى ، ووجد منصب الحسبة وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما النظام المالى فمن الواضح أن موارد الدولة الإسلامية التى تمول بيت المال متعددة وأن مصدر وأسلوب تطبيقها من الكتاب والسنة ، فالزكاة والجزية والغنائم والفئ نزلت بشأنها آيات قرآنية ، والخراج قرره الخليفة عمر بن الخطاب ، استنباطاً من القرآن ، كما قرر العشور بمبدأ المعاملة بالمثل بعد أن فُرِضَ على تجار المسلمين فى أراض أجنبية واستلزم الإسلام الاجتهاد فى تطبيقها بما لايخالف الكتاب والسنة ، فجاء تطبيقها على اختلاف الظروف المكانية والزمانية على الوجه الأكمل(٣) .

---

(١) عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٤٠ -٤١ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول ، ص٥٧-٥٩ .

(٢) انظر : عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٤١ - ٤٣ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ....، ص٤٦١ - ٤٦٣ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول .... ، ص٥٠ - ٥٢ .

(٣) العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ - ١٨٤ ، عرب فقيه ، فتوح الحبشة، ص ٨٨ - ٨٩ ، المقريزى ، الإلمام ، ص٦ - ٨ ، قطب إبراهيم محمد ، النظم المالية فى الإسلام (القاهرة ، ١٩٨٢م) ص٢٦ ، ٢٨ - ٢٩ .

وكانت الزكاة مورداً من موارد مالية مملكة أوفات ، ونظمت أداءها بموافقة الدولة ، وأرسلت العاملين لجمعها من المسلمين ، وتصريفها على مصارفها المحددة فى قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ...﴾(١) وتشددوا فى طلبها لأن عند أهلها محافظة للدين(٢) .

أما الجزية فكانت مقررة ، ويقال إن السلطان سعد الدين رفض جزية سنوية من ملك وثنى يدعى إيلى بورى ، باعتبار أن الجزية تؤخذ من أهل الذمة(٣) كما نتج عن حروب الجهاد التى خاضتها مملكة أوفات مغانم كثيرة من أموال وأسلحة وأسرى ، مما يشكل مورداً من موارد الدولة . وقسمة الغنائم – بعد إخراج الخمس منها – راجعة إلى تقدير السلطان وما يراه مناسباً للمحاربين فى سبيل الله(٤) .

أما العملة ، فلم يكن لمملكة أوفات دار سك للنقود ، وكانوا يتعاملون بدنانير ودراهم مصر مما يدخل مع التجار إلى بلادهم ، كما تعاملت بالذهب الذى يجلب إليها من منطقتى دافوت وسخا في الحبشة، وكانت الأوقية من الذهب تساوى حوالى ثمانين إلى مائة وعشرين درهماً على قدر جودة الذهب ونقائه ، وكانت المقايضة خير وسيلة للتبادل التجارى ، وكانت الموازين

(١) سورة التوبة : آية (٦٠) ، وللمزيد انظر : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير تفسير القرآن العظيم (بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م) جـ٢ ، ص٣٧٨ – ٣٨٠ .

(٢) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢ ورقة ١٨٣ ؛ عرب فقية، فتوح الحبشة، ص٨٨-٨٩.

(٣) قطب إبراهيم ، النظم المالية ، ص٨٥ – ٨٧ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٠٩، ١٤٢ ، ١٤٤– ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ٢٧٣ ، المقريزى ، الإلمام ، ص١٢ وما بعدها .

(٤) عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٢٧ ، قطب إبراهيم ، النظم المالية ، ص٨٥ .

موجودة ، ثم ظهرت فى القرن الخامس عشر عملة جديدة عرفت باسم ورقة أوفات ، ثم ظهرت فى القرن السادس عشر دراهم فىأوفات عرفت باسم الأشرفية والملحقية، إلا أن تاريخ سكها لم يحدد . وكانت قيمة الصاع من الذرة - فى أيام الرخاء - خمسة محلق - أما أيام الغلاء فهى اثنتا عشر اشرفية ، وصاع الملح خمس وعشرون اشرفية ، والبقرة حوالى ثلاثمائة أشرفية أو أكثر من ذلك(١) .

ونتج عن التركيبة الاجتماعية لمملكة أوفات ، أنه تعايشت فيها جماعات مختلفة الأعراف من عرب وهنود وفرس وأفارقة ، وذلك منذ بزوغ فجر الإسلام ، وحركة نشر العقيدة الإسلامية ، ويعيش هذا الخليط السكانى فى المدن الساحلية فى منطقة القرن الأفريقى ، حيث ظهرت فى أوساطهم لهجة زيلعية من كلمات عربية وصومالية وعفرية وهندية ، وربما فارسية ، ومازالت الرقصات الشعبية ، والأغانى الزيلعية ذات الطابع الخاص ، إلى اليوم ، تشير إلى ذلك التمازج اللغوى والعرقى .

وكانت الأسرة الحاكمة عربية الأصل ، وبجانبها التجار والزراع والجنود من العرب المهاجرين ، والهنود من أكبر الطبقات التجارية ، ويشكل الأفارقة أغلبية مجتمع أوفات ، وحسب موقع المملكة فإنهم كانوا بصفة

---

(١) للمزيد ، انظر : العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ - ١٨٤ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٢٦٣ ، محمد بن على الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٣٤٨هـ) جـ٢ ، ص١٤٢ - ١٤٣ ، نعيم زكى فهيم ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص٣٦٣ - ٣٦٤ .

أساسية من الصوماليين والعفريين والجاليين(١) ولـم يكـن للفـوارق اللونيـة أي أثر فى المجتمع ، فامتزجت تلك العناصر امتزاجاً يكاد يكون تاماً(٢) .

وجملة القول ، أن مملكة أوفات عاشت فى قرن أفريقيا ردحاً من الزمن ، وساهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى تلك المنطقة ، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامى ، فضلاً على الدور الذى لعبتـه فـى تاريخ المنطقة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، فاستمر دفع الحضارة الإسـلامية فى قرن أفريقيا فى الازدهار والانتشار حتى بلـغ مداه فـى أيامهـا ، وشـجعت أوفات التعليم الإسلامي الذى هو جزء لايتجزأ من الديـن كمـا أن أهلهـا كـانوا يحـافظون علـى دينهم ، وعندهـم المسـاجد والجوامـع التـى تقـام فيهـا الجُمَـعُ والجماعـات ، وظهـرت المـدارس القرآنيـة بظهـور الإسـلام ، فنظـام التعليـم عندهم يشبه ماعرف فى العالم الإسلامى قبـل ظهـور المـدارس النظاميـة ، إذ بْدأ من مرحلة الكتاتيب ، ثم مرحلة العلوم العقلية والنقليـة ، واهتـم السـلاطين والفقهاء والعلماء بأن يحل الدين الإسلامى وثقافته محـل الوثنيـة والمسـيحية ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيماً ، وواكبـت اللغـة العربيـة وثقافتهـا حركـة المـد الإسلامى وانتشاره فى المنطقة وأصبحت لغة التسـجيل فـى دواويـن الحكومـة والمكاتبـات الرسمية وفـى القضـاء حتـى تركـت بصماتهـا القويـة فـى اللغـات المحليـة ، كما كان السـكان يجيـدون اللغـة العربية ، وهذا ما يقوله العمـرى :

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام فى القارة الأفريقيـة (القـاهرة ، ١٩٦٣م) ص٣١ - ٣٣ ، إبراهيم طرخان ، الممالك الإسلامية فى الحبشة ، ص٤٤

1. M. Lewis, The Modern History of Somaliland from Nation to State (London, 1965) pp . 21- 22 .

(٢) عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص١٥٤ - حسن جوهر ، الحبشة ، ص١٤٠ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٨١ .

" وكلام أهلها (يقصد أوفات) باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضاً بالعربية "(١)، وشيد أهل أوفات مدارس القرآن الكريم (الدوكس Dugs) فى كل مكان يوجد فيه مجتمع إسلامى ، واهتم المجتمع بها ، وأرسلوا إليها أولادهم وكانت الأدوات المستخدمة فى الدوكس : اللوح ، والقلم ، والدواة(٢) .

وازدهرت الحركة العلمية فى مدن مملكة أوفات ، وأصبحت زيلع وهرر وأوفات وبربرة مدناً جامعية مشهورة فى مملكة أوفات ، ودول الطراز الإسلامى ، وتنقل الطلاب بين هذه المدن التى اشتهرت باتقان علمائها علوماً معينة ، حيث اشتهرت هرر بدراسة علوم اللغة العربية والتفسير والحديث ، واشتهرت زيلع بفقة الشافعية ، وأعطى المجتمع الإسلامى العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للنَّهَلِ من مواردهم العلمية ، وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية فى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق(٣) ، ونزحت

---

(١) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزى ، الإلمام ، ص٧،جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال فى العصور الوسطى والحديثة (القاهرة ١٩٦٥م) ص١٦ ، ٣٥ .

(٢) كلمة دوكسى (Dugsi) الصومالية هى الخلاوى السودانية أو الكتاتيب العربية ، أما الكُتّابُ (Kutaab) فهو مفرد وجمع وهو طالب المدرسة القرآنية ، وتطابق الكلمة العربية فى المقصود والكتاب الصبيان . للمزيد انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام (القاهرة ، ١٩٧٩م) جـ٢ ، ص٥٠ ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم فى الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص١٣ ، جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال، ص٣٨ .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر : عبد القادر شيخ عبد الله ،تاريخ التعليم فى الصومال ،ص٤٠ .

إليها جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - فى العالم الإسلامى، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتنوعت الحياة الثقافية فيها ، وأصبح العلماء طبقة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطانى وفى الحياة الثقافية والاجتماعية ، وقادوا حركات الجهاد كالشيخ محمد أبو عبد الله ، والشيخ حق الدين الثانى ، وأحمد بن إبراهيم ، كما تولى بعضهم مهمة السفارت كالشيخ عبد الله الزيلعى(١) .

وأيّاما كان الأمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء، الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التى تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، كما أن للمملكة قضاة ومحاكم شرعية ، وأئمة للمساجد ، وكتبة ، مما يستدعى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية وساعد على ذلك استمرار هجرة علماء المسلمين إليها من الأقطار المجاورة ، وكانت اشهرها هجرة الأربعة والأربعين شيخاً حضرمياً فى أيام السلطان جمال الدين الثانى ، الذين نزلوا فى مدينة بربرة عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠(٢).

وقد ارتبطت مملكة أوفات الإسلامية بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية فى المشرق العربى لنيل مساعداتهم المعنوية والمادية لمواصلة

(١) العمرى، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣-١٨٤؛ المقريزى ، الإلمام ، ص٦-٧، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ....، ص٤٨٤ - ٤٨٦ .

(٢) انظر ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٣ - ١٤ ، المقريزى ، الإلمام ، ص٧ ، العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٥ - ١٨٦ ، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام، ص٣٨٧؛ حمدى السيد ، الصومال قديماً وحديثاً (مقدشو ، ١٩٦٥م) جـ١ ، ص٣٥٢ - ٣٥٣ .

الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية فى المنطقة ، ومن أهم هذه الدول مصر واليمن ، وقد أضفى البحر الأحمر على مملكة أوفات أهمية كشريان تجارى بين الشرق والغرب ، واحتلت مدن زيلع وتاجورة وعيذاب وسواكن والسويس وغيرها مكانة مرموقة فى عالم تجارة العصر الوسيط وبعض العصور الحديثة ، وكان أهل أوفات حملة التجارة الشرقية مع إخوانهم الأريتريين والسودانيين واليمنيين ، وكونوا خطاً تجارياً ضخماً ، بنقل المتاجر بين موانئ البحر الأحمر الجنوبية والمحيط الهندى، وبين موانئ مصر الشمالية التى ينقل منها التجار الإيطاليون إلى أوربا. أما المصريون فقد أعطوا اهتماماً كبيراً لتجارة البحر الأحمر وخطا بيبرس خطوات واسعة نحو تأمين دولته المترامية الأطراف ، والملاحة فى البحر الأحمر ، إذ استنكر تعرض صاحبى سواكن ودهلك للتجارة فى عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م وبعد عامين من ذلك سير حملة استولت على سواكن ، وأقرت الأمور فيها ، مما أدى إلى تقرب حكام دهلك إلى المماليك(١) .

وكانت اليمن من أهم الدول الإسلامية فى شرق البحر الأحمر التى ارتبطت بها مملكة أوفات بعلاقات سياسية اقتصادية وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمنى وكانت مملكة أوفات ملجأ الهاربين من دوامة الصراع فى اليمن .

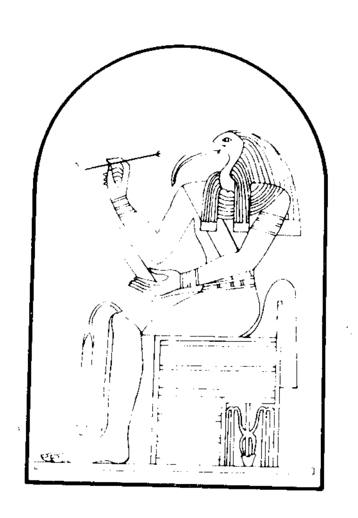
وكان لأوفات - بجانب العلاقات السابقة - صلات ثقافية مع المشرق العربى ، وفى مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموى بدمشق والحرمين

(١) للمزيد انظر : محمد عبد العال أحمد . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدها ، (الأسكندرية ، ١٩٨٠م) ص٣٧٧ .

الشريفين ، وتنقل العلماء والطلاب على طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها بحرية وأمان ، وظهر فى هذا الجو العلمى الرائع علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا على شهرة فى محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة فى مصر والشام واليمن والحجاز والعراق ، فاهتم بهم كتاب تراجم العلماء المسلمين والبارزين فى مجال العلوم الإسلامية ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ فخر الدين الزيلعى ، وجمال الدين أبو محمد الزيلعى ، وغيرُهما كثير(١) .

(١) جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة د . ت) جـ١ ، ص١٥١ – ١٥٢ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ١ ، ص٤٠٢ – ٤٠٣ ، عبد الرحمن زكى ، أفريقيا الإسلامية (القاهرة ، ١٩٨٥م) جـ٢ ، ص٣٦ – ٣٧ .

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 16 (JANUARY 1996)